

(١)

تهذيب الأخلاق

- تقديم .
- الأخلاق المذمومة .
- في الأخلاق المحمودة .
- في النفس الشهوانية .
- في النفس الغضبية .
- في النفس الناطقة .
- في أنواع الأخلاق وأقسامها .
- في طريق الرياضة بالأخلاق والعمل لاعتيادها .
- في أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي بها يصل إلى التمام .

تقديم بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم :

نحمد الله سبحانه وتعالى ، الذي وصف أكرم أنبيائه بأعظم الوصف وأكرمهم في غير ما آية من كتابه الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ .

ومنها قوله تعالى :

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَأَعَفَ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ .

ومنها قوله تعالى :

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وهكذا في القرآن الكريم آيات كثيرة : تحض على مكارم الأخلاق وتنهى عن سفاسفها .

وكذلك ورد في الحديث الشريف مالا يكاد يقع تحت حصر .

منها قوله (ص) - فيما رواه الحاكم - «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مُعَالِي الْأَخْلَاقِ ، وَيَكْرَهُ سُفْسَافَهَا» .

وروى ابن السمعاني في كتاب «أدب الإماء» قوله (ص) :
«أدبني ربي فأحسن تأديبي» .

وروى أبو الشيخ (رحمه الله تعالى) : أن رسول الله (ص) قال :
«الخلق زمام من رحمة الله» .

وروى الطبراني ، عنه (ص) ، أنه قال :
«الخلق الحسن يذهب الخطايا كما يذهب الماء الجليد ،
والخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» .

* * *

وبعد :

فقد كتب كثير من علماء المسلمين في «الأخلاق» ، وما تؤدي
إليه من نتائج ، وأوضحوها أبين إيضاح وأفضل بيان .

وممن كتب في هذا المجال : الشيخ الأكبر محي الدين بن
عربي (رحمه الله تعالى رحمة واسعة) : كتابه هذا الذي نقدم له تلك
المقدمة الصغيرة .

ونحن هنا لا نزكيه ، فإنه - كما يقولون - أشهر من نار على
علم .

والذي يحتاج إلى تزكية تكون فيه مادة النقص أوفر وأعلى من
مادة الكمال .

وليس هو كذلك ، فإن فضله مشهور ، وعلمه غزير ، وكماله أوفر
بكثير مما يتصور الناس .

إنه علم من أعلام الإسلام ، وإن أنكر هذا جاحدوه ، وشرق عند
سماع اسمه شأنؤه ، ورغم حسد الحاسدين وافتراء المفتريين وكذب
الكذابين وإفكهم .

ستلتقي الأعين أمام الله تبارك وتعالى ، ويتضح المكنون ، ويظهر
المبطون ، في اليوم الذي لا يغني فيه المال ، ولا الدعاوي الكاذبة -
﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾ .

هذا الكتيب - على صغره - جامع لأخلاق الحميدة ، وناه عن
الأخلاق الذميمة ، بأسلوب المتمكن أمكن في مادته وعلمه ، إذ تحت
كل كلمة من كلماته بحر من المعاني ، غزير غوره ، بعيد ما بين
شاطئيه .

سلك فيه مسلكاً فذاً رائعاً في بيان كل خلق ، وأسبابه ونتائجه
فما ترك فيه خلقاً حميداً إلا مجده ، ولا مسلكاً وضعياً إلا هتكه
وفضحه .

واستعمل ركيزة أهل العلم والتجربة والخبرة ، فإنه عمل رئيساً
لديوان «الإنشاء والرسائل» لبعض ملوك الأندلس .

* * *

ذكر السيد : شكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية» هذا
الكتاب باسم «الأخلاق» وذكر أنه ترجم إلى اللغة التركية .

* * *

والنسخة التي راجعنا عليها طبعت في ٢ شعبان سنة ١٣٣٢ هـ
باسم «فلسفة الأخلاق» وجاء في آخرها ما نصه :

«تم والحمد لله على كل حال في ٢ شعبان سنة ١٣٣٢ هجرية ،
على ذمة المتوكل على الله : «علي محمد أبو طالب» الكتبي بخان
الخليلي بمصر .

وجاء في أولها ترجمة للشيخ الأكبر من صفحتين ، حذفناهما
لعدم الجدوى ، ولأنه من خصوصيات الطبعة الأولى ، وترجمة الشيخ
(رحمه الله تعالى) مشهورة معروفة .

وكتب في آخرها جملة حكم وآداب : التقطها الناشر من كتب
الشيخ ، حذفناها أيضاً لأننا لا نقصد غير الكتاب وحسب . وما كان
دخيلاً عليه لا شأن لنا به .

* * *

وقد ذكر الشيخ (رحمه الله تعالى) في آخر الكتاب اسمه ، بقوله :
(وهذا حين نختم القول بـ «تهذيب الأخلاق») .

فلذلك أدرنا هذه التسمية .

ونسأل الله تعالى أن يجعل علمنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ،
وأن يجزي الشيخ أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين : إنه سميع
مجيب .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .

إعلم أن الإنسان - من بين سائر الحيوان - ذو فكر وتمييز ، وهو
أبداً يحب من الأمور : أفضلها ومن المراتب أشرفها ، ومن
المقتنيات : أنفسها إذا لم يعدل عن التمييز في اختياريه ، ولم يغلبه
هواه في اتباع أغراضه .

وأولى ما اختاره الإنسان لنفسه ، ولم يقف دون بلوغ غايته ، ولم
يرض بالتقصير عن نهايته : تمامه وكماله^(١) .

ومن تمام الإنسان وكماله : أن يكون مرتاضاً^(٢) بمكارم
الأخلاق ، ومحاسنها ، ومتنزه^(٣) عن مساوئها ومقابحها ، أخذاً في
جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلاً في كل أفعاله عن طريق

(١) يعني ينبغي للإنسان أن يبلغ غاية جهده في تكميل نفسه والسعي بها إلى أعلى
الدرجات جهد طاقته .

(٢) يعني مدرباً على المكارم .

(٣) تنزه عن الشيء : بعد عنه وأنفه .

الردائل ، فإذا كان ذلك كان واجبا على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شيمة^(١) سليمة من المعائب ، ويصرف همته على إقتناء كل خيم^(٢) كريم ، خالص من الشوائب ، وأن يبذل جهده في إجتناّب كل خصلة مكروهة ردية ، ويستفرغ وسعه في إطراح كل خلة مذمومة دنية ، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ، ويكتسي حلل الجمال بدمائه^(٣) شمائله ، ويباهي بحق أهل السؤدد والفخر ، ويلحق بالذرى^(٤) من درجات النباهة والمجد .

إلا أن المبتدئ بطلب هذه المرتبة ، والراغب في بلوغ هذه المنزلة ، ربما خفيت عليه الخلال المستحسنة ، التي يعنيه تحريها ، ولم تتميز له من المستقبحة التي غرضه توقيها .

فمن أجل ذلك ، وجب أن نقول في الأخلاق قولاً نبين فيه :

ما الخلق ؟

وما علتة ؟

وكم أنواعه ، وأقسامه ؟؟

وما المرضي منها المغبوط صاحبه والمتخلق به ؟

وما المشنو^(٥) منها ، المقموت فاعله ، والمترسم به ؟

ليسترشد بذلك : من كانت له همة تسمو إلى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبية ، تنبو^(٦) عن مساواة أهل الدناءة والنقص ، وتدل أيضاً على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه ، والتدرب به ، وتنكب

(١) الشيمة : الصفة .

(٢) سجية وطبيعة .

(٣) سهولة الخلق .

(٤) الذرى : بضم الذال وفتح الراء : من ذروة الجمل : أعلى مكان فيه .

(٥) المكروه منها .

(٦) نبا عن الشيء : بعد عنه .

المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير المرتاض به ديدناً^(١) وعادة وسجية وطبعاً ليهتدي به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادات الردية وأنس بها .

ونصف أيضاً الإنسان التام المهذب الأخلاق ، والمحيط بجميع المناقب الجميلة ، وطريقته التي يصل بها إلى التمام ، وتحفظ عليه الكمال ، ليشتااق إلى صورته^(٢) من تشوق إلى الرتبة العليا ، ويحن إلى احتذاء سيرته من استشرف إلى الغاية القصوى .

وقد ينتبه بما نذكره من كانت له عيوب قد اشتبهت عليه ، وهو مع ذلك يظهر أنه في غاية الكمال .

فإن من هذه حالة إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة ، فيقظ لما فيه من ذلك وأنف^(٣) واجتهد في تركه والتزّه عنه .

وكذلك إذا تصفح الأخلاق المحمودة ، من كان جامعاً لأكثرها ، عادماً لبعضها ، قدّم إلى التخلق بذلك البعض الذي هو عادماً له ، وتاقت نفسه إلى الإحاطة بجميعها .

وقد ينتفع بما نذكره أيضاً من كان في غاية الكمال ، فإن المهذب الأخلاق الكامل الآلات ، الجامع المحاسن ، إذا مرّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ، ورأى أن تلك هي عاداته وسجاياه ، كانت له بذلك لذة عجيبة ، وفرحة مبهجة ، كما أن الممدوح يسر إذا ذكر المادح نفسه ، ونشر فضائله .

وأيضاً فإنه إذا وجد أخلاقه مدونة في الكتب ، موصوفة بالحسن ، كان ذلك داعياً إلى الإستمرار على سيرته ، والإصرار على طريقته .

(١) الضمير راجع إلى الخلق ، أي يصير الخلق الذي عود نفسه عليه : عادة له وطبيعة .

(٢) أي إلى صورة الإنسان الكامل .

(٣) أنف : تنزه عنه .

وهذا حين ابتدأنا بذكر الأخلاق فنقول :

«إن الخلق هو حال النفس ، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار» .

والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد ، كالسخاء ، يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ، ولا تعمل ، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل ، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة .

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك بالرياضة .

ومنهم من يبقى على عادته ، ويجري على سيرته .

الأخلاق المذمومة

فأما الأخلاق المذمومة ، فإنها موجودة في كثير من الناس ، كالبخل ، والجبن ، والظلم ، والشر .
فإن هذه العادات غالبية على أكثر الناس ، مالكة لهم .
بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ، ويسلم من جميع العيوب .
ولكنهم يتفاضلون في ذلك .
وكذلك في الأخلاق المحمودة ، قد تختلف الناس ويتفاضلون ، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً .
وأما المجبولون على الأخلاق السيئة ، فأكثر الناس ، لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر .
وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه ، ولم يستعمل : الفكر ، ولا التمييز ، ولا الحياء ، ولا التحفظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم ، لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز .
فإذا لم يستعملها ، كان مشاركاً للبهائم في عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحياء غائب عنه ، والغضب يستنفره ، والسكينة غير

حاضرة له ، والحرص والأحقاد ديدنه ، والشر لا يفارقه .
فالناس مطبوعون على الأخلاق الردية ، منقادون للشهوات
الدنية .

ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن ، والسياسات
المحمودة ، وعظم الانتفاع بالملوك الحسنى السيرة ، ليردعوا الظالم
عن ظلمه ، ويمنعوا الغاصب عن غصبه ، ويعاقبوا الفاجر على
فجوره ، فيقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره .
فالأخلاق المكروهة في طباع الناس .

إلا أن فيهم من يتظاهر بها ، وينقاد لها ، وهم شرار الناس .
وفيهم من ينتبه بجودة الفكر ، وقوة التمييز لقبحها ، فيأنف
منها ، ويتصنع لاجتنابها ، وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة .
وفيهم من لا ينتبه لذلك ، إلا أنه إذا نبه عليه أحسن بقبحه ،
فربما حمل نفسه على تركه .

وفيهم من إذا أنتبه لما فيه من النقائص ، أو نبه عليها ، ورام
العدول عنها : تعذر عليه ذلك ، ولم يطاوعه طبعه ، وإن كان مريداً
للعدول عنها مجتهداً في ذلك .

وهذه الطائفة تحتاج أن ترشد إلى طريق التدرب والتعمل
للعادات المحمودة ، حتى يصير إليها على التدرج .

ومن الناس من ينتبه للأخلاق الردية أو ينبه عليها ، فلا يحسن إلى
تجنبها ، ولا تسمح نفسه بمفارقتها ، بل يؤثر الإصرار عليها ، مع علمه
براءتها وقبحها .

وهذه طائفة ليس إلى تهذيبها طريق ، إلا بالقهر والتخويف
والعقوبة ، إن لم يردعها الترهيب .

في الأخلاق المحمودة

فأما الأخلاق المحمودة فإنها وإن كانت في بعض الناس عزيزة ، فليست في جميعهم ، وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة ، ويترقوا إليها بالاعتیاد والألفة .

ومع هذا الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة ، ولا الخلق الجميل ، وذلك يكون لرداءة جوهره ، وخبث عنصره .

وهذه الطائفة من جملة الأشرار ، الذين لا يرجى صلاحهم ، وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة ، وينبو طبعه عن بعضها ، وليس يعد هذا شريراً ، ولكن رتبته في الخير بحسب محاسنه .

فأما العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق ، وهي النفس ، فللنفس ثلاث قوى ، وهي تسمى أيضاً نفوساً .

وهي النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية . والنفس الناطقة .

وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى ، فمنها ما يختص

بإحداهن ، ومنها ما يشترك فيه قوتان ، ومنها ما يشترك فيه القوى
الثلاث .

ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان .

ومنها ما يختص به الإنسان فقط .

في النفس الشهوانية

أما النفس الشهوانية ، فهي للإنسان ولسائر الحيوان ، وهي التي يكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية ، كالإقدام إلى المآكل والمشارب ، والمباضعة^(١) .

وهذه النفس قوية جداً ، متى لم يقهرها الإنسان ، ويهذبها ملكته ، فاستولت عليه .

فإذا هي استولت عليه خسر تهذيبها ، وصعب قمعها وتذليلها .

فإذا تمكنت هذه النفس من الإنسان وملكته ، وانقاد لها كان بالبهايم أشبه من بالناس ، لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبداً مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط ، وهذه هي عادات البهايم .

ومن يكون بهذه الصفة ، يقل حياؤه ، ويكثر خرقه^(٢) ، ويستوحش من أهل الفضل ، ويميل إلى الخلوات^(٣) وينقبض عن المجالس الحفلة^(٤) ، ويبغض أهل العلم ، ويشنأ أهل الورع

(١) المباضعة : كناية عن الجماع .

(٢) الخرق : بفتح الحاء والراء : إذا عمل شيئاً لم يرفق فيه .

(٣) المقصود بالخلوات هنا : أنه يبعد عن أهل الكمال وينعزل عنهم .

(٤) بفتح الحاء وكسر الفاء : أي مجالس الجماعات .

والنسك ، ويود أصحاب الفجور ، ويحب الفواحش ، ويكثر ذكرها ،
ويلذ له استماعها ، ويسر بمعاشرة السفهاء ، ويغلب عليه الهزل ،
وكثرة اللهو .

وقد يصير من هذه حالة إلى الفجور ، وارتكاب الفواحش
والتعرض للمحظورات .

وربما دعتة محبة اللذات إلى إكتساب الأموال من أقبح
وجوهها ، وربما حملته نفسه على الغضب والتلصص ، والخيانة ،
وأخذ ماليس له بحق ، فإن اللذات لا تتم بالأموال والأعراض .

فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجهها ، جسرتة شهوته
على اكتسابها من غير وجهها .

ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد ، فهو أسوأ الناس حالاً ،
وهو من الأشرار ، الذين يخاف خبثهم ، ويستوحش منهم ، ويستروح
إلى البعد عنهم ، ويصير واجباً على متولى السياسات قمعهم
وتأديبهم ، وإبعادهم ونفيهم ، حتى لا يختلطوا بالناس ، فإن
اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم ، وخاصة لأحداثهم ، فإن
الحدث سريع الانطباع ، ونفسه مجبولة إلى الميل إلى الشهوات ، فإذا
شاهد غيره مرتكباً لها ، مستحسناً للانهماك فيها ، مال هو أيضاً إلى
الإقتداء به ، وإلى مساعدة لذته .

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها ، كان ضابطاً لنفسه ، عفيفاً
في شهواته ، محتشماً من الفواحش ، متوقياً من المحظورات محمود
الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات ، فالعلة الموجبة لاختلاف عادات
الناس في شهواتهم ولذاتهم ، وعفة بعضهم ، وفجور بعضهم ، هو
اختلاف أحوال النفس الشهوانية ، فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبة ، كان
صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه ، وإذا كانت مهملة مرسلة ، مالكة
لصاحبها : كان صاحبها : فاجراً شريراً .

وإذا كانت متوسطة الحال ، كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبتها
في التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الإنسان نفسه الشهوانية ،
ويهدبها حتى تصير منقادة له ، ويكون هو مالكها ، فيستعملها في
حاجاته التي لا غنى عنها ، ويكفها عما لا حاجة له إليه من الشهوات
الردية ، واللذات الفاحشة .

في النفس الغضبية

وأما النفس الغضبية ، فيشترك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان .
وهي التي يكون بها : الغضب ، والجراءة ، ومحبة الغلبة .

وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية ، وأضر بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها .

فإن الإنسان إذا إنقاد للنفس الغضبية كثر غضبه ، وظهر خرقه ، واشتد حقه ، وعدم حلمه ووقاره ، وقويت جراته ، وأسرع عند الغضب إلى الانتقام والايقاع بمغضبه ، والوثوب على خصومه ، فأسرف في العقوبة ، وزاد في التشفي^(١) فأكثر السب وأفحش فيه .

فلإذا استمرت هذه العادات بالإنسان كان بالسباع أشبه منه بالناس .

وربما حمل قوماً^(٢) على حمل السلاح .

(١) قال في المصباح المنير : «واشتفيت بالعدو وتشفيت به من ذلك ، لأن الغضب الكامن كالداء ، فإذا زال بما يطلبه الإنسان من عدوه فكأنه برىء من دائه .

(٢) مفعول لفعل محذوف تقديره : «حمل الغضب قوماً» والله أعلم .

وربما أقدموا على القتل والجراح .

وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم ، وأوليائهم ، وعبيدهم ،
وخدمهم عند الغضب من السير من الأمور .

وربما غضب من هذه حالة ، ولم يقدر على الإنتقام من
خصمه ، فيعود بالضرر والسب والألم على نفسه .

فمنهم من يلطم وجهه ، وينتف لحيته ، ويعض يده ، ويسب
نفسه ، ويذكر عرضه .

وأيضاً فإن من تملكه^(١) النفس الغضبية يكون محباً للغلبة ،
متولياً على من آذاه ، مقدماً على كل من ناوأه ، طالباً للترأس من غير
وجهة .

فإذا لم يتمكن من الرياسة من وجهها ، توصل إليها بالحيل
الخبثة ، فاستعمل كل ما يمكنه من الشر .

وهذه الأفعال تورط صاحبها ، وتوقعه في المهاوي والمهالك .

فإن من وثب على الناس ، وثبوا عليه ، ومن خاصمهم خاصموه
ومن أقدم عليهم أقدموا عليه ، ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر .

وربما تسفه الإنسان على خصمه ، وكان الخصم أسفه منه ، فإن
ناله بسوء ، قابله ذلك بأكثر منه .

وقد يغلب على من هذه حاله : الحسد ، والحقد ، والقحة^(٢)
واللجاج^(٣) ، والجور .

وقد يحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على إكتساب

(١) بضم الكاف لأنها في الأصل تملكه .

(٢) القحة : بكسر القاف وفتحها .

(٣) في المصباح «قال ابن فارس : اللجاج تماحك الخصمين ، وهو تماديهما» .

الأموال من غير وجهها ، وأخذها بالغلبة والظلم .
وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم .

وربما فعلوا ذلك من غير روية ، فيؤول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال .

فأما من ساس نفسه الغضبية ، وأدبها وقمعها : كان رجلاً ،
حليماً ، وقوراً ، عادلاً ، محمود الطريقة .

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غيظهم وسفاهة
بعضهم ، هو اختلاف أحوال النفس الغضبية .

إذا كانت مذلة مقهورة : كان صاحبها حليماً وقوراً .

وإذا كانت مهمة ، مستولية على صاحبها ، كان صاحبها :
غضبواً ، سفيهاً ، غشوماً .

وإذا كانت متوسطة ، كان صاحبها متوسط الحال ، رتبته في
الحلم كرتبة نفسه الغضبية ، حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في
المواضع التي يجب استعمالها فيها .

فإن لهذه النفس فضائل محمودة ، وذلك لأن الأنفة من الأمور
الدنية ، ومحبة الرئاسة الحقيقية ، وطلب المراتب العالية ، من
الأخلاق المحمودة ، وهي في أفعال النفس الغضبية .

فإذا ملك هذه بالتأديب والتهذيب ، واستعملها في الأمور
الجميلة ، وكفها عن الأفعال المكروهة ، كان حسن الحال ، محمود
الطريقة .

في النفس الناطقة

وأما النفس الناطقة ، وهي التي بها تميز الإنسان من جميع الحيوان .

وهي التي بها يكون الذكر^(١) والتميز ، والفهم .

وهي التي بها شرف الإنسان وعظمت همته ، فأعجب بنفسه .

وهي التي بها يستحسن المحاسن ، ويستقبح القبائح ، وبها يمكن الإنسان أن يهذب قوته الباقيتين ، وهما^(٢) : الشهوانية والغضبية ، ويكفهما ويضبطهما وبها يفكر في عواقب الأمور ، فيبادر بإستدراكها في أوائلها .

ولهذه النفس أيضاً فضائل ورذائل .

أما فضائلها فباكتساب العلوم والآداب ، وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش ، وقهر النفسين الآخرين ، وتأديبهما ، وسياسة صاحبهما في معاشه ومكسبه ومروءته وتجمله ، وحث صاحبها على :

(١) بكسر الذال ، وسكون الكاف .

(٢) في الأصل : وهي .

فعل الخير ، والتودد ، والرقّة ، وسلامة النية ، والحلم ، والحياء ،
والنسك ، والعفة ، وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة .

وأما رذائلها : فالخبث ، والحيلة ، والخديعة ، والملق^(١)
والمكر ، والحسد ، والتشّور ، والرياء .

وهذه النفس هي لجميع الناس .

إلا أن منهم من تغلب عليه فضائلها ، فيستحسنها ويستعملها .

ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر عليها .

ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل .

وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعاً لا
بتكلف .

فأما المطبوع على العادات الجميلة ، فمنها ما يكون لقوة نفسه
الناطقة عنصرياً .

وأما المطبوع على العادات المكروهة ، فلضعف نفسه الناطقة ،
وسوء جوهره .

وأما الذي يجتمع فيه فضائل ورذائل ، فهو الذي تكون نفسه
الناطقة متوسطة الحال .

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات ، وجميع الأخلاق جميلها
وقبيحها إكتساباً .

وذلك يكون بحسب منشأ الإنسان ، وأخلاق من يحيط به ،
ويشاهده ، ويقرب منه ، وبحسب رؤساء وقته ، ومن يشار إليه
بالنباهة ، ويغبط على رتبته فإن الحدث^(٢) الناشيء يكتسب الأخلاق

(١) في المختار : «ورجل ملق : يعطي بلسانه ما ليس في قلبه» .

(٢)(١) غير الناشيء .

ممن يكثر ملابسته ومخالطته ، ومن أبويه ، وأهله وعشيرته .
فإذا كان هؤلاء سيء الأخلاق مذمومي الطريقة ، كان الحدث
الناشيء بينهم أيضاً سيئي الأخلاق ، مكروه العادات .
وإذا لحظ الحدث أيضاً أهل الرئاسة ، ومن فوقه ، وغبطهم على
مراتبهم : أثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم .
فإذا كانوا مهذبي الأخلاق حسنى السيرة ، كان المتشبه بهم حسن
الأخلاق مرضي الطريقة .
وإن كانوا أشراراً جهالاً خرج الغابط لهم ، السالك طريقهم
شريراً جاهلاً .
وهذه حال أخلاق أكثر الناس ، فإن : الجهل ، والشر ،
والخبث ، والشره والحسد ، غالب عليهم .
والناس بالطبع : يقتدي بعضهم ببعض ، ويحتذي التابع أبداً
سيرة المتبوع .
وإذا كان الغالب عليهم الشر والجهل ، كان واجباً أن لا يقتدي
أحداثهم وأولادهم وأتباعهم بهم .
فالعلة الموجبة لاختلاف قوة النفس : اختلاف الناس في
سياساتهم وفضائلهم ، وغلبة الخير والشر عليهم ، من اختلاف قوة
النفس الناطقة فيهم إذا كانت خيرة ، فاضلة ، قاهرة للنفسين
الباقيتين ، كان صاحبها خيراً عادلاً حسن السيرة ، وإذا كانت شريرة ،
خبیثة مهملة للنفسين الآخرين ، كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلاً .
فمن أجل ذلك ، وجب أن يعمل الإنسان فكره ، ويميز أخلاقه ،
ويختار منها ما كان جيداً مستحسناً جميلاً ، وينفي منها ما كان مستنكراً

قبيحاً ، ويحمل نفسه على التشبه بالأخيار ويتجنب كل التجنب عادات
الأشرار .

فإنه إذا فعل ذلك صار بالإنسانية متحققاً ، وللرئاسة الذاتية^(١)
مستحقاً .

(١) الرئاسة الذاتية : أي يترأس نفسه ويملكها ، ولا تملكه .

في أنواع الأخلاق وأقسامها

فأما أنواع الأخلاق وأقسامها ، وما المستحسن منها وما المستحب اعتياده ويعد فضائل ، وما المستقبح منها وما المكروه ويُعد نقائص ، ومعائب ، فهي الأنواع التي نحن واصفوها :

أما التي تعد فضائل ، فإن منها العفة ، وهي : ضبط النفس عن الشهوات ، وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته ، واجتناب السرف ، والتقصير في جميع اللذات ، وقصد الاعتدال ، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب ، المتفق على ارتضائه ، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها ، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه ، ولا يحبس النفس والقوة أقل منه .
وهذه الحال هي غاية العفة .

ومنها القناعة ، وهي الاقتصار على ما سنع من العيش ، والرضى بما يسهل من المعاش ، وترك الحصرص على إكتساب الأموال ، وطلب المراتب العالية ، مع الرغبة في جميع ذلك وإشاره والميل إليه ، وقهر النفس على ذلك ، والتمتع باليسير منه .
وهذا الخلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم .

وأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحباً منهم ، ولا تُعد القناعة من فضائلهم .

ومنها التصون ، وهو التحفظ من التبذل . فمن التصون : التحفظ من الهزل القبيح ، ومخالطة أهله ، وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش ، وذكر الخنا والقبيح ، والمزاح السخيف ، وخاصة في المحافل ، ومجالس المحتشمين .

ولا أبهة لمن يسرف في المزاح ، ويفحش فيه .

ومن التصون أيضاً الإنقباض عن أدنياء الناس وأصاغرهم ، ومصادقتهم ، ومجالستهم والتحرز من المعاش السردية ، وإكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة ، والترفع عن مسألة الحاجات للناس وسفلتهم ، والتواضع لمن لا قدر له ، والإقلال من البروز من غير حاجة والتبذل بالجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار .

فإن الإكثار من ذلك مخل .

وأعظم الناس قدراً عند الخلق : من ظهر اسمه ونحفي شخصه .

وأما الحلم وهو ترك الإنتقام عند شدة الغضب ، مع القدرة على ذلك ، وهذه محمودة ما لم تؤد إلى ثلم^(١) جاه أو فساد سياسة .

وهي بالرؤساء والملوك أحسن ، لأنهم أقدر على الإنتقام من مغضبهم ، ولا يعد فضيلة : حلم الصغير عن الكبير : وإن كان قادراً على مقابله في الحال .

فإنه وإن أمسك ، فإنما يعد ذلك خوفاً لا حلماً .

ومنها الوقار ، وهو الإمساك عن فضول الكلام ، والعيب وكثرة الإشارة ، والحركة فيما يستغني عن الحركة فيه ، وقلة الغضب ،

(١) الثلم : الخلل .

والإصغاء عنه الاستفهام ، والتوقف عند الجواب ، والتحفظ عن التسرع ، والمبادرة في جميع الأمور .

ومن قبيل الوقار أيضاً : الحياء ، وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه .

وهذه العادة محمودة ما لم تكن عن عي^(١) ولا عجز .

ومنها : الود ، وهي : المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل ، وذوي الوقار والأبهة ، والمتميزين من الناس .

وأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم ، والأحداث ، والنسوان ، وأهل الخلاعة ، فمكروه جداً .

وأحسن الود ما ينتجه بين متآلفين : مناسبة الفضائل ، وهو أوثق الود ، وأثبته .

وأما ما كان ابتداءً اجتماعاً على هزل أو لطلب لذة ، فليس هو محموداً ، وليس بياق ، ولا ثابت .

ومنها : الرحمة ، وهو خلق مركب من الود والجزع .

والرحمة : لا تكون إلا لمن ظهر منه لراحمة خلة مكروهة .

إما نقيصة ، وإما محنة عارضة .

فالرحمة هي محبة للمرحوم ، مع جزع من الحال التي من أجلها رحم .

وهذه الحال مستحسنة ، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ، ولم تنته به إلى الجور ، وإلى فساد السياسة ، فليس بمحمود رحمة القاتل عند القود ، والجاني عند القصاص .

(١) العي : بكسر العين : هدم الاهتداء للوجه الذي يريده والعي ضد البيان .

ومنها : الوفاء ، وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ، ويرهن به لسانه ، والخروج مما يضمنه ، وإن كان مجحفاً به ، فليس يعد وفياً من لم يلحقه بوفائه أذية وإن قلت . وكلما أضر به الدخول تحت ما يحكم به على نفسه ، كان أبلغ في الوفاء .

وهذا الخلق محمود ، ينتفع به جميع الناس .

فإن من عرف بالوفاء ، كان مقبول القول ، عظيم الجاه ، إلا أن انتفاع المملوك بهذا الخلق ، أكثر ، وحاجتهم إليه أشد .

وإنه متى عرف منهم قلة الوفاء ، لم يوثق بمواعيدهم ، ولم تتم أغراضهم ، ولم يسكن إليهم جندهم وأعوانهم .

ومنها أداء الأمانة ، وهو التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره ، وما يوثق به وعليه من الأعراض ، والحرم^(١) مع القدرة عليه ، ورد ما يستودع إلى مودعه .

ومنها : كتمان السر .

وهذا الخلق مركب من الوقار ، وأداء الأمانة .

فإن إخراج السر من فضول الكلام .

وليس بوقور من تكلم بالفضول .

وأيضاً ، فكما أن من أستودع مالاً فأخرجه إلى غير مودعه ، فقد خفر الأمانة ، كذلك من استودع سراً فأخرجه إلى غير صاحبه ، فقد خفر الأمانة^(٢) .

وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصة ممن يصحب

(١) الحرم : بضم الحاء وفتح الراء .

(٢) خفر الأمانة : اضاعها .

السلطان ، فإن إخراج أسرارهِ - مع أنه قبيح - يؤدي إلى ضرر عظيم ،
يدخل عليه من سلطانه .

ومنها : التواضع ، وهو ترك التّراس ، وإظهار الخمول ، وكراهية
التعظيم والزيادة في الإكرام ، وأن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من
الفضائل والمفاخرة بالجاه والمال ، وأن يتحرز من الإعجاب والكبر .
وليس يكون حسن التواضع إلّا في أكابر الناس ورؤسائهم ،
وأهل الفضل والعلم .

وأما سوى هؤلاء ، فليس يكونون متواضعين ، لأن الضعة هي
محلهم ورتبتهم ، فهم غير متضعين^(١) لها .

ومنها البشر^(٢) وهو إظهار السرور بمن يلقاه الإنسان من إخوانه
وأودائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه ، والتبسم عند اللقاء .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك
والعظماء أحسن .

فإن البشر في الملوك يتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية ،
ويزداد به تحبباً إليهم .

وليس سعيداً من الملوك من كان متبغضاً إلى رعيته .

وربما أدى ذلك إلى فساد أمره ، وزوال ملكه .

ومنها : صدق اللهجة ، وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به .

وهذا الخلق مستحسن ، ما لم يؤد إلى ضرر مجحف ، فإنه
ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبتها ، فإنه

(١) لأن هناك فرقاً بين المتواضع من الرفعة ، والوضيع بطبعه .

(٢) بكسر الباء وسكون الشين .

لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة .

وكذا ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه ، ولا إن سئل عن جناية متى صدق عنها عوقب عليها بعقوبة مؤلّمة .

والصدق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن ، بل لا يسعهم الكذب ، ما لم يعد الصدق عليهم بضرر .

ومنها سلامة النية ، وهو اعتقاد الخير لجميع الناس ، وتجنب : الخبث^(١) والغيبة ، والمكر ، والخديعة .

وهذا الخلق محمود من جميع الناس ، إلا أنه ليس يصلح للملوك التخلق به دائماً ، ولا يتم الملك إلا باستعمال المكر والحيل والاعتغال مع^(٢) الأعداء .

ولكن لا يحسن بهم استعماله مع أوليائهم ، وأصفيائهم ، وأهل طاعتهم .

ومنها السخاء ، وهو : بذل المال من غير مسألة ولا إستحقاق ، وهذا الفعل مستحسن ، ما لم يتته إلى السرف والتبذير ، فإن بذل جميع ما يملك لمن لا يستحقه ، لم يسم سخياً ، بل يسمى مبذراً مضيعاً .

والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة ، فأما في الملوك فأمر واجب ، لأن البخل يؤدي إلى الضرر العظيم في ملكهم ، والسخاء والبذل يرتهن به قلوب الرعية والجند والأعوان ، فيعظم الانتفاع به .

(١) بضم الخاء وسكون الباء .

(٢) ذلك لأن العدو إن لم تمكر به مكر بك ، وإن لم تغتله اغتالك ، ولكن يجب أن تعلم أنه ليس بين المسلمين عداوة ، وحروب هذه الأيام من المسلمين بعضهم مع بعض حروب جاهلية وكفر والله أعلم .

ومنها الشجاعة ، وهو : الإقدام على المكاره والمهالك ، عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف ، والاستهانة بالموت .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن ، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلقة .

وأكثر الناس أخطاراً وأحوجهم إلى اقتحام الغمرات ، هم الملوك ، فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم .

ومنها المنازعة ، وهو منازعة النفس في التشبه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه ، والاجتهاد في الترقى إلى درجة أعلا من درجته .

وهذا الخلق محمود إذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية ، وما يكسب مجداً وسؤدداً ، فأما في غير ذلك من اتباع الشهوات ، والمباهاة باللذات ، والزينة ، والبزة^(١) فمكروه جداً . ومنها : الصبر عند الشدة .

وهذا الخلق مركب من : الوقار والشجاعة . ومستحسن جداً : ما لم يكن الجزع نافعاً ، ولا الحزن والقلق مجدياً ، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة ضرر تلك الحالة . وما أقبح الجزع إذا لم يكن مفيداً^(٢) .

ومنها عظمة الهمة ، وهو : استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور ، وطلب المراتب السامية ، واستحقاق ما يجود به الإنسان عند

(١) بكسر الباء وفتح الزاي المشددة : الهيئة .

(٢) الجزع المفيد : أن لا يقدم الإنسان على الشيء إلا إذا تدبر عواقبه ، فلأن رآه خيراً أقدم ، وإلاً أحجم .

لعطية ، والاستخفاف بأوساط الأمور ، وطلب الغايات ، والتهاون بما يملكه ، وبذل ما يمكنه لمن يسأله ، من غير امتنان ولا اعتداد به .
وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة .

وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ، ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم .
ومن عظم الهمة : الأنفة ، والحمية^(١) والغيرة . والأنفة هو : نبو النفس عن الأمور الدنية .

والحمية ، والغيرة جميعاً هما : الغضب عند الإحساس بالنقص .

وإنما يلحق الإنسان الغيرة على الحرم ، لأن في التعرض لهن عاراً ومنقصة ، فإن المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهن ، ومتصرف في حق له .

والاهتضام : نقيصة .
ومن عظم الهمة الأنفة من الاهتضام^(٢) ، ودخول النقص .
وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس .

ومنها العدل : وهو التوسط اللازم للاستواء ، وهو استعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها ، ووجوهها ومقاديرها ، من غير سرف ولا تقصير ، ولا تقديم ولا تأخير .

فأما الأخلاق الردية التي تعد نقائص ومعائب ، فإن منها :
الفجور ، وهو الإنيهماك في الشهوات ، والاستكثار منها ، والتوفر على اللذات ، والإدمان عليها ، وارتكاب الفواحش ، والمجاهرة بها .

(١) بفتح الحاء ، وكسر الميم ، وتشديد الباء المفتوحة .

(٢) اهتضمه : ظلمه حقه .

وبالجملة : السرف في جميع الشهوات .

وهذا الخلق أبداً يهدم الحياء ، ويذهب ماء الوجه ، ويخرق حجاب الحشمة .

ومنها الشره ، وهو : الحرص على إكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه ، وإن قبح التعسف في اكتسابها ، والكالبة عليها ، والاستكثار من القنية^(١) وإدخار الأعراض^(٢) .

وهذا الخلق مكروه في جميع الناس ، إلا من الملوك ، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعراض تعين على الملك ، وتزين الملوك ، وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم ، وأعوانهم ، وأعدائهم وأضدادهم .

ومنها التبذل ، وهو : اطراح الحشمة ، وترك التحفظ عن الهزل واللهو ، ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش ، والتفوه بالخنا ، وذكر الأعراض^(٣) والمزح ، والجلوس في الأسواق ، وعلى قوارع الطرق ، والتكسب بالمعاش الرديء ، والتواضع للسفلة .

وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

ومنها السفه ، وهو ضد الحلم ، وهو سرعة الغضب والطيش ، من يسير الأمور ، والمبادرة في البطش الإيقاع بالمؤذي ، والسرف في العقوبة ، وإظهار الجزع من أدنى ضرر ، وأنسب الفاحش .

وهذا الخلق : مستقبح من كل أحد ، إلا أنه من الملوك والرؤساء أقبح .

(١) أي يكثر الإنسان من اقتناء الأشياء للحرص .

(٢) الاعراض جمع : عرض بفتح العين والراء .

(٣) يعني بالسوء .

ومنها الخرق^(١) وهو كثرة الكلام والتحرك من غير حاجة ، وشدة الضحك ، والمبادرة إلى الأمور من غير قف ، وسرعة الجواب .

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد .

وهو بأهل العلم وذوي النباهة : أقبح .

ومن قبيل الخرق القحة ، وهو : قلة الاحتشام ، لمن يجب احتشامه ، والمجاهرة بالجوابات الفظة المستشنة .

وهذا الخلق مكروه ، وخاصة بذوي الوقار .

ومنها العشق ، وهو إفراط الحب ، والسرف فيه .

وهذا الخلق مكروه على جميع الأحوال ، إلا أن أقبحه وأشره : ما كان مصروفاً إلى طلب اللذة ، واتباع الشهوة الردية .

وقد يحمل صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش ، وكثرة التبذل ، وقلة الحياء ، ويكسبه عادات ردية ، وهو بكل أحد قبيح ، إلا أنه بالأحداث ، والمترفهين والمتنعمين : أقل قبحاً .

ومنها القساوة ، وهو : خلق مركب من : البغض ، والشجاعة .

والقساوة هو : التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى .

وهذا الخلق مكروه من كل أحد ، إلا من الجندي وأصحاب السلاح والمتولين الحروب ، فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان في موضعه .

ومنها الغدر ، وهو : الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ، ويضمن الوفاء به ، وهذا الخلق مستقبح ، وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة ، وهو بالملوك والرؤساء أقبح ، وبهم أضر ، فإن عرف

(١) بفتح الخاء والراء .

من الملك الغدر لم يسكن إليه أحد ، ولم يثق به ، وإذا لم يسكن إليه : فسد نظام ملكه .

ومنها : الخيانة ، وهو الاستبداد بما يؤمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم^(١) وتملك ما يستودع ، ومجاهدة مودعه .

ومن الخيانة أيضاً طي الأخبار إذا بدت مصلحة لتأديتها ، وتحريف الرسائل إذا تحملها وصرفها عن وجهها .

وهذا الخلق - أعني الخيانة - مكروه من جميع الناس ، يثلم الجاه ، ويقطع وجوه المعاش .

ومنها إفشاء السر .

وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة ، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر له .

والسر أحد الودائع ، وافشاؤه نقيصة على صاحبه فالمشي للسر : خائن .

وهذا الخلق قبيح جداً ، وخاصة ممن يصحب السلاطين ويدخلهم .

ومن قبيل إفشاء السر : النميمة ، وهو أن يبلغ إنساناً^(٢) عن آخر قولاً مكروهاً .

وهذا الخلق : قبيح جداً .

وإن لم يستسر أيضاً بما يسمعه أو يبلغه ، فنقله إلى من يكرهه : قبيح ، لأن في ذاك إيقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه .

وذلك غاية الشرر :

(١) جمع حرمة .

(٢) مفعول لفاعل مقدر .

ومنها : الكبر ، وهو استعظام الإنسان بنفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل ، والإستهانة بالناس ، واستصغارهم ، والترفع على من يجب التواضع له .

وهذا الخلق : مكروه ضار لصاحبه ، لأن من أعجبه نفسه ، لم يستزد من إكتساب الأدب .

ومن لم يستزد بقي عليه نقصه .

فإن الإنسان ليس يخلو من النقص ، وقلمما ينتهي إلى غاية الكمال .

وأيضاً فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس ، ومن أبغضه الناس ساءت حاله .

ومنها العبوس : وهو التقطيب عند اللقاء ، وقلة التبسم ، وإظهار الكراهية .

وهذا الخلق مركب من : الكبر ، وغلظ الطبع .

فإن قلة البشاشة ، هي : الإستهانة بالناس ، والإستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر .

وقلة التبسم أيضاً - وخاصة عند لقاء الإخوان - يكون من غلظ الطبع ، وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل .

ومنها : الكذب ، وهو : الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه .

وهذا الخلف : مكروه ، وما لم يكن لدفع مضرة ، لا يمكن أن تدفع إلا به ، واجترار نفع لا غنى عنه ، ولا يوصل إليه إلا به .

فإن الكذب عند ذلك ليس يستقبح ، وإنما بمستقبح الكذب إذا كان عبثاً ، ولنفع يسير لا خطر له ، لا يفني بقباحة الكذب .

والقبح بالملوك والرؤساء أكثر ، لأن اليسير من النقص يشينهم .
ومنها : الخبث : وهو إضرار الشر للغير ، وإظهار الخير له ،
واستعمال : الغيلة^(١) ، والمكر ، والخديعة في المعاملات .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلا من الملوك
والرؤساء ، فإنهم إليه مضطرون ، واستعمالهم إياه مع أصدقائهم
وأعدائهم لا يستقبح .

فأما أوليائهم وأصحابهم ، فإنه غير مستحسن .

ومن قبيل الخبث : الحقد ، وهو إضرار الشر للجاني إذا لم
يتمكن من الانتقام منه ، فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت إمكان
الفرصة .

وهذا الخلق : من أخلاق الأشرار ، وهو مذموم جداً .

ومنها البخل : وهو منع المسترفد^(٢) مع القدرة على رفده .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلا أنه من النساء
كمال^(٣) .

وأما سائر الناس ، فإن البخل : يشينهم ، وخاصة الملوك ،
والعظماء ، فإن البخل يفض منهم أكثر مما يفض من الرعية والعوام ،
ويقدح في ملكهم ، لأنه يقطع الأطماع منهم ، ويبغضهم إلى
رعيته .

(١) الغيلة : بكسر الغين : الاغتيال ، والخداع .

(٢) المسترفد - بالفاء : من يطلب منك الرقد - بكسر الراء المشددة ، أي العطاء . والله
تعالى أعلم .

(٣) لأن المرأة إذا أعطت كل من طلب خربت بيت زوجها ، مع أنها مقيدة برضا الزوج ،
لأن ما تعطيه ملكه هو ، لا هي : فتصرفها - إذا تصرفت - في غير ملكها .

ومنها : الجبن ، وهو الجزع عند المخاوف ، والإحجام عما تحذر عاقبته ولا تؤمن مغيبته^(١) .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلا أنه بالملوك والجند وأصحاب الحروب : أضر .

ومنها الحسد ، وهو : التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير ، وما يجده فيه من الفضائل ، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هوله .

وهذا الخلق : مكروه ، وقبيح بكل أحد .

ومنها الجزع عند الشدة ، وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن .

وهو يستقبح إذا لم يكن مجدياً ولا مفيداً ، فأما إظهار الجزع لتعمل حيلة بذلك عند الوقوع في الشدة ، واستغاثة مغيث ، أو اجتلاب معين ، فيما تغنى فيه المعاونة ، فغير مكروه ، ولا يعد نقیصة .

ومنها صغر الهمة ، وهو : ضعف النفس عن طلب المراتب العالية ، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات ، واستكثار السير من الفضائل ، واستعظام القليل من العطايا ، والاعتداد به . والرضى بأوساط الأمور وأصاغرهما .

وهذا الخلق : قبيح بكل أحد ، وهو بالملوك أقبح ، بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته .

ومنها : الجور ، وهو : الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور ، والسرف والتقصير ، وأخذ الأموال من غير وجهها ، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق ، وفعل الأشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ، ولا

(١) المغبة : العاقبة .

على القدر الذي يجب ، وعلى الوجه الذي يجب .
ومن الأخلاق ما هو في بعض الناس فضيلة ، وفي بعضهم
رذيلة .

فمنها : حب الكرامة ، وهو أن يسر الإنسان بالتعظيم والتبجيل ،
والمقابلة بالمديح ، والثناء الجميل .

وهذا الخلق محمود في الأحداث والصبيان ، لأن محبة الكرامة
تحثهم على اكتساب الفضائل .

وذلك أن الحدث والصبي ، إذا مدح على فضيلة ترى فيه كان
ذلك داعياً له من الازدياد من الفضائل .

وأما الأفاضل من الناس ، فإن ذلك يعد منهم نقيصة ، لأن
الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربة منه ، وإذا كان من
أهل الفضل ، فليس ينبغي أن يسر ، بأن يستغرب ما يظهر منه من
الفضائل .

وكذلك الإكرام والتبجيل إذا كان زائداً على استحقاقه ، فإنه
يجري مجرى الملق ، والسرور بالملق غير محمود ، لأنه من جنس
الخدعة .

ومنها : حب الزينة ، وهو التصنع بحسن البزة^(١) ، والركوب ،
والآلات ، وكثرة الخدم والحشم .

وهذا مستحسن من الملوك والعظماء ، والأحداث ، والظرفاء
والمتنعمين ، والنساء .

وأما الرهبان^(٢) ، والشيخ ، وأهل العلم ، وخاصة الخطباء

(١) بكسر الباء وفتح الزاي المشددة : الهيئة .

(٢) رهبان الحق - الذين فرغوا أنفسهم لعبادة الله - ، لا رهبان سوء الذين جمعوا كل
الرذائل والمستقبحات .

والواعظين ، ورؤساء الدين ، فإن الزينة والتصنع : مستبح منهم .

والمستحسن منهم : لبس الشعر ، والخشن ، والمشى ،
والخفاء ، ولزوم الكنائس^(١) ، وحبهم ، وكراهية التنعم .

ومنها المجازاة على المدح ، وهو : مجازاة من يمدح الإنسان ،
ويشكره في المجالس والمحافل .

وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء ، لأن ذلك يدعو
الناس إلى مدحهم ، ويكسب الممدوح ذكراً جميلاً ، يبقى على
الدهر .

ومن فضائل الملوك والرؤساء : بقاء ذكرهم الجميل ، فأما
محبتهم سماع المدح مواجهة ، فذلك غير مستحب ، لأنه من جنس
الملق ، وحب الملق مكروه ، لأنه من قبيل الخديعة .

وأما إثارة ذكرهم وانتشار ذكرهم ومدحهم ، وتداول الناس له ، وبقاءه
بعدهم ، فإن ذلك محمود منهم .

فمجازاة المادح مستحسنة من الملوك ، ومنعهم مستقبح وضار :
لأن ذلك يدعو إلى ذمهم .

وذمهم يبقى أيضاً على الدهر ، فينشر لهم ذكراً قبيحاً ، وذلك
مكروه للملوك والرؤساء .

وأما أصاغر الناس ، فمحبتهم جزاء المادح محمود ، فإنه إذا
مدح الدنيا من الناس فإنما يخدعه ، فإذا أجازته اعتقد أنه استرق منه
تلك الجائزة .

وكثير من الناس إذا مدحوا بما ليس فيهم : يبادرون إلى مجازاة

(١) ليفرغوا أنفسهم لما فرغوا أنفسهم له ، وذلك في الأزمنة التي كان الإسلام فيها مالكا
للأمور .

المادح ، فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه ، وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء ، وأهل المسكنة كان أجمل بهم وأليق .

ومنها : الزهد ، وهو : قلة الرغبة في الأموال والأعراض^(١) والإدخار ، والقنية ، وإيثار القناعة بما يقيم الرمق ، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها ، وقلة الاكتراث بالمراتب العالية ، واستصغار الملوك وممالكهم ، وأرباب الأموال وأموالهم ، وهذا الخلق مستحسن جداً ، ولكن من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ، ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت .

وأما الملوك والعظماء ، فإن ذلك غير مستحسن منهم ، ولا لائق بهم ، لأن الملك إذا أظهر الزهد ، فقد صار ناقصاً ، لأن ملكه لا يتم إلا باحتشاد الأموال والأعراض^(٢) وإدخارها ، ليذب بها عن ملكه ، وصار معدوداً من جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة .

فهذه الأقسام التي ذكرناها ، هي أخلاق جميع الناس .

أما المحمود منها ، المعدود فضائل ، فقلما تجمع كلها في إنسان واحد .

وأما المذموم منها ، المعدود نقائص ومعائب ، فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعها ، حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة ، من لم يرض^(٣) نفسه ويؤدبها ، فإن لم يعمل لضبط نفسه ، ويفتقد من عيوبه ، لم يخل من عيوب كثيرة ، وإن لم يحسن بها ، ولم يفتن لها ، فإن كان الأمر على ما ذكرنا ، كان الأجدر بالإنسان أن يتفقد أخلاقه ، ويتأمل عيوبه ، ويجتهد في إصلاحها ، وينفيها عن نفسه ،

(١) ، (٢) جمع عرض ، بفتح العين والراء .

(٣) بفتح الياء وضم الراء .

ويتبع الأخلاق المحمودة ، ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها فإن الناس إنما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم ، لا كما يعتقد الجهال والعامّة : أنهم يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم ، وكثرة الذخائر والأعراض ، فإن أكثر الناس إنما يتفاخرون بالذخائر والأموال ، والآلات ، ويعظمون أبدأً الأغنياء وذوي الأحوال ، ولا يترتب بعضهم على بعض إلا بكثرة الأموال ، وبالجاه المكتسب بالمال .

وليس كثرة الأموال ، مما تتفاضل بها أحوال الناس ، فأما نفوسهم ، فليس تكون أفضل من نفوس غيرهم ، بكثرة الأموال .

وذلك أن الفاجر السفيف الجاهل الشرير - وإن حوى أموالاً عظيمة - فليس يكون أفضل من الضعيف الحكيم العالم الخير ، وإن كان فقيراً .

بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه ، فأما في الفضل فليس يكون أحد أفضل من أحد إلا بكثرة الفضائل فقط .

فإن اجتمع للإنسان ، مع أخلاقه الجميلة والعادات المستحسنة - الغنى والثروة ، فلعمري أنه يكون أحسن حالاً من الفاضل المقتدر ، لأنه من سعادات الإنسان أيضاً - وخاصة إذا كان فاضلاً ، عادلاً ، عفيفاً ، وأنه يصرف ماله في وجوهه ، وينفقه في حقوقه ، ويتفقد به من يجب تفقده ، ويسعف به أهل المسكنة ، ولا يقعد عما يجب فأرق صاحبه (و) سقطت منزلة صاحبه من نفوس الناس ، وساوى العامة والسوقة لأنه إذا رأس بالمال المعظم له هو ماله : لا نفسه ، فإذا زال ذلك المال ، لم يبق له شيء يعظم من أجله^(١) .

(١) يقصد الشيخ (رحمه الله ورضي عنه) : إنه إذا عظم الناس صاحب مال أو سلطان ، فإنما يعظمون ماله أو سلطانه ، بدليل أنه إذا ذهب المال أو السلطان رجع كما كان ، غير معظم ولا محترم - ولعل في الجملة سقطاً أو تحريفاً في الطبعة الأولى - والله أعلم .

وليس كذلك الفاضل النفس ، المهذب الأخلاق ، فإن هذا رئاسته بفضائله ، وفضائله غير مفارقة له ، فهو رئيس ما دام^(١) ومعظم لذاته لا لشيء من خارج ، ولأن الراغب في سياسة نفسه ، المؤثر تهذيب أخلاقه ، إذا نبه على خلق مذموم يجده في نفسه ، وأحب اجتنابه ، ربما صعب الانتقال عنه من أول وهلة ، وربما لم ينل التخلص منه ، ولم يطاوعه طبعه ، وربما استحسن أيضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه ، وأثر التخلق به ، ولم تستجب له عادته ، ولم يصل إلى مراده ، فوجب أن نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدربون بها ، ويتدرجون فيها ، حتى ينتهوا إلى مرادهم من اعتياد الأخلاق الجميلة ، والأنطباع بها ، وتجنب الأخلاق القبيحة والتفرغ منها فنذكر من أجل ذلك :

(١) يعني : مدة دوامه .

في طريق الارتياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها

وقد ذكرنا فيما تقدم : أن سبب اختلاف الأخلاق في الناس ، هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم : وهي : الشهوانية ، والغضبية ، والناطقة .

وإن ملاك الأخلاق ، هو تذليل الشهوانية منها ، والغضبية ، وتمييز عادات النفس الناطقة ، واستعمال المحمود من أفعالها .

وطريق التدريج لاستعمال العادات الجميلة ، والعدول عن العادات المستفحبة ، هو التدرج في تذليل هاتين القوتين .



أما النفس الشهوانية فالطريق إلى قمعها أن يتذكر الإنسان في وقت شهواته ، وعند شدة القდوم إلى لذاته ، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية ، فيعدل عما تآقت نفسه إليه من الشهوة الردية إلى ما هو مستحسن ، من جنس تلك الشهوة ، متفق على ارتضاءه ، فيقتصر عليه .

فإن بذلك الفعل تنكسر شهوته ثم يعللها ويعددها ، فإن سكنت ، وإلا عاود الفعل من الوجه المستحسن ، فإنه إذا فعل ذلك وتكرر

فعله ، كفت النفس ، وإن استمر على هذه الحالة ألفت النفس هذه العادة ، وأنست بها ، واستوحشت مما سواها .

وينبغي - لمن أراد قمع نفسه الشهوانية - أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان^(١) والنساك وأهل الورع والواعظين ، ويكرم مجالسة الرؤساء وأهل العلم ، فإن الرؤساء - وخاصة رؤساء الدين - يعظمون من كان معروفاً بالعفة ويستزرون من كان فاجراً متهتكاً .

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون ، والتعفف ، والتجمل لأولئك لئلا يستزروه ويغضوا منه ، وليلق برتبة من يعظم في المحافل .

وينبغي له أيضاً أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة ، وأخبار الزهاد والرهبان ، والنساك ، وأهل الورع ، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء ، وامتتهكين ، ومن يكثر الهزل واللعب .

وأكثر ما يجب عليه : تجنب السكر ، فإن السكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية ، ويقويها ، ويحملها على التهتك وإرتكاب الفواحش ، والمجاهرة بها ، وبذلك إن الإنسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز ؛ وإذا سكر عدم ذلك الذي كان يردعه عن الفعل القبيح ، فلا يبالي أن يرتكب كل ما كان يتجنبه في صحوه .

فأولى الأسباب لمن طلب العفة هجر الشراب بالجملة ، وإن لم

(١) يقصد الشيخ (رحمه الله) بذكره الرهبان : الملتزمين منهم بحدود التوراة والإنجيل الذين نزلوا من عند الله - ولعل في قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنْ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ إشارة إلى ذلك ، فإن قوله - كثيراً - يفيد أن فيهم أيضاً أناساً لا يفعلون ذلك ، لأنه لم يقل - إن الأحبار والرهبان - بل عبر جلّ وعلا بـ «كثيراً» وهذا النوع غير موجود الآن . والله أعلم .

يمكنه ، فليقتصر على السير منه^(١) ويكون في الخلوات ، أو مع من لا يحتشمه ، ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر ، والخلاعة ، ولا يظن أنه إن حضر تلك المجالس ، واقتصر على السير من الشراب : لم يستضر به ، فإن هذا غلط^(٢) .

وذلك أن من حضر مجالس الشراب ، ليس تنقاد له نفسه إلى القناعة بيسير الشراب ، بل إن حضر مجالس الشراب ، وكان في غاية العفة ، تاركاً للشراب ، متمسكاً بالورع ، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس ، وتاقت نفسه إلى الفعل لما هو أكثر من ذلك ، وتهتك بعد الستر والصيانة .

فسيمة أحوال من طلب العفة : عدم حضور مجالس الشراب ومخالطة أهلها والاستكثار من معاشرتهم .

وينبغي : لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يقل من استماع السماع ، وخاصة النسوان والشابات منهن ، المتصنعات ، فإن للسماع قوة عظيمة في إثارة الشهوة ، فإذا انضاف إلى ذلك : أن تكون المسمعة مشتتة متعلمة^(٣) لاستمالة العيون إليها : اجتمع على السماع حوادث كثيرة ، فربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه ، والأولى لمن هم بقهر الشهوة : أن يتجنب السماع ، وإن لم يكن منه بد ، ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية ، فليقتصر على استماعه من الرجال ، ومن لا مطمع للشهوة فيه ، والإقلال منه خير وأصون للمتعفف .

فأما الطعام ، فينبغي أن يعلم أن غايته هو : الشبع ، لدفع ألم الجوع ، فخير الطعام وردية جميعاً مشبعان ، فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير حظ .

(١) استدراجاً لنفسه ، حتى تنتهي بالمرّة ، وفي كلامه بعد إشارة إلى ذلك أنظر ص ٥٥ .

(٢) أي إن الخمر ولو قليلة فيها الخطر ولا بد .

(٣) طرق الضرب والإيقاع .

والأولى هو التوسط في أنواع المآكل ، وأن يكون في الجنس الذي نشأ عليه الإنسان ، واعتاده وألفه ، على أن شهوة الطعام والنهم فيه ، وإن كان من الأخلاق الرديئة فهو أسهلها وأهونها ، وليس يكسب صاحبها من العار ما يكسبه محبة الشراب والمباضعة ، ومعاشرة النسوان ومصاحبة الأحداث ، المتهيين للفواحش ، فإن ذلك في غاية القبح ، وشهوة المآكل أقل قبحاً منه ، وأخف على فاعله ، وهو مع ذلك قبيح ، والاستهتار به وكثرة النهم والشرد إليه مكروه ، وطريق التدرج إلى الاقتصاد في الطعام ، هو : أن يبادر ذو الشهوة إلى أي شيء وجدته من المآكل ، فإن كان المشتهي الذي تآقت نفسه إليه حلواً فإلى أي حلاوة وجدها ، وإن كان غير ذلك ، فإلى ما يشابهه في الطعم فإنه إذا تناول من الطعام ما يشبهه ذلك المشتهي في الطعم ، فإن شهوته تسكن ، ونفسه تكف .

وينبغي لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً ، ذاكرةً لما يلحق الفاجر والنهم والشر والتمتهك من القباحة والعار ، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ، فإن نفسه تبغض الشهوات ، وتشتاق إلى التعفف والقناعة ، وتطرب عند العدول عن الفواحش ، مع القدرة عليها ، وترتاح لما ينشر عنها ، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها .

فهذا الذي ذكرنا هو : طريق رياضة النفس الشهوانية ، وتذليلها وقمعها ، وهو طريق الارتياض بالمعادات المحمودة المرضية ، فيما يتعلق بالشهوات واللذات .

فأما النفس الغضبية فإن الطريق في قمعها وتذليلها هو : أن يصرف الإنسان همته إلى أن يتفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحسدتهم وتسفهمهم على خصومهم ، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فإنه يشاهد منهم منظرًا شنيعاً ، يأنف منه الخاص والعام ، فإن تذكر ما شاهد في أوقات غضبه ، وعند جنابات خدمه

وعبيده ، وعند ذنوب إخوانه وأودائه ، وفي جميع محاوراته ومعاملاته ، فإنه إذا تذكر ما كان استقبحه من السفهاء : انكسرت بذلك سورة^(١) غضبه ، وأحجم عما هم بالإقدام عليه من السب والوثوب ، فإن لم يكف بالكلية أقصر ، ولو أنه غاية الفحش .

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية ، أن يذكر أوقات غضبه على من يؤذيه ، أو يجني عليه ، أنه لو كان هو الجاني : ما الذي كان يستحق على جانيته ؟

فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية ، أو أرش^(٢) ذلك الأذى : يسير جداً .

فإذا اعتقد ذلك ، كانت مقابلته للجاني ، والمؤذي ، بحسب اعتقاده ، فلا يسرف في الإنتقام ، ولا يفحش في الغضب .

فإذا فعل ذلك دائماً ، وجعله ديدناً ، وتفقد معائب السفهاء ، ومن يسرع إليه الغضب ، لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتناقد ، فإذا استمر على ذلك مدة : صار خلقاً وعادة .

وينبغي لمن يرغب في تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل السلاح ، وحضور مواضع الحروب ، ومقامات الفتن ، ومجالسة الأشرار ، ومعاشرة السفهاء ، ومخالطة الشرط ، فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة ، وتعدمه الرأفة والرحمة ، فتفسوا لذلك نفسه الغضبية .

فإذا كان يريد تذليلها وتسكينها ، وجب أن يجعل مجالسته لأهل العلم ، وذوي الوقار ، والشيوخ ، والرؤساء ، والأفاضل ، ومن يقل غضبه ، ويكثر حلمه ووقاره .

(١) بفتح السين المهملة وسكون الواو : شدة الغضب .

(٢) دبة الجراحات .

وينبغي له أيضاً : أن يتجنب المسكر من الشراب ، فإن السكر يهيج النفس الغضبية أكثر مما يهيج الشهوانية ، وبذلك ربما يسرع إلى العريضة ، والوثوب على جلسائه ، والاستخفاف بهم وسبهم ، وذكر أعراضهم ، بعد أن كان يتحنن عليهم ، ويتودد إليهم .

ولا يكون بين الوقتين إلا بمقدار ما يستحكم عليه السكر ، فالسكر مثير للقوة الغضبية ، ومقولها ، فمن أراد أن تسكن نفسه الغضبية ، فلا بد أن يتجنب المسكر .

وإن تمكن من هجران الشراب ألبتة ، فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية - جميعاً .

وينبغي لمن أراد تذليل قوته الغضبية والشهوانية أن يستعمل في جميع ما يفعله الفكر ، ولا يقدم على الشيء إلا بعد أن يتروي فيه ، ويجعل الفكرة واتباع الرأي ديدنه وعادته ، فإن الرأي وجودة الفكر ، يقبحان له السفه وسرعة الغضب ، والإنهماك في الشهوات ، واتباع اللذات ، فإذا استقبح ذلك أحجم عنه ، وعدل إلى ما يقتضيه الرأي والفكر ، وإن لم يرتدع بالكلية ، فلا بد أن يؤثر ذلك فيه ، فيقتصر عما يريد الشروع فيه .

وملاك الأمر في «تهذيب الأخلاق» وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هي تقوية النفس الناطقة فإن بهذه النفس تكون جميع السياسات .

وهذه النفس إذا قويت متمكنة من صاحبها أمكنة : إن يسوس بها قوتيها الباقيتين ، ويكف نفسه عن جميع القبائح ، ويتبع أبداً مكارم الأخلاق ، وإذا لم تكن هذه النفس قوية في صاحبها ، وكانت مقهورة خافتة ، فأول ما ينبغي أن يعتمد في سياسة أخلاقه أن يروض هذه ويقويها ، وتقوية هذه النفس إنما يكون بالعلوم العقلية ، فإنه إذا نظر في العلوم العقلية ودقق النظر فيها ودرس كتب الأخلاق والسياسة ،

وداوم عليها تيقظت نفسه ، وتنبهت ، وانتعشت من خمولها ، واحست
بفضائلها ، وأنفت من رذائلها ، وذلك أن هذه إنما تضعف وتحفت إذا
عدمت الفضائل والمناقب ، واستولت عليها الرذائل ، فإذا اقتنت
الفضائل ، واكتسبت الآداب ، تيقظت من غشيتها ، وثار من
سكرتها ، وقويت بعد ضعفها .

وفضائل هذه النفس هي : العلوم العقلية ، وخاصة ما دق منها ،
فإذا ارتاض الإنسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه ، وعظمت همته ،
وقويت فكرته ، وتمكن من نفسه ، وتملك أخلاقه ، وقدر على
إصلاحها ، وإنفاد له طبعه ، وسهل عليه تهذيبه ، واذعنت له القوة
الغضبية والشهوانية ، وهان عليه قمعها وتذليلها .

فأول ما ينبغي أن يتدبر به من يحب سياسة أخلاقه : النظر في
كتب الأخلاق ، والسياسة ، ثم الإرتباط بعلوم الحقائق ، فإن أشرف
ما تكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور ، وأشرفت على هيئات
الموجودات .

وإذا شرفت نفس الإنسان وعلت همته : ترقى إلى مراتب أهل
الفضل .

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضاً : مجالسة أهل العلم ،
ومخالطتهم ، والإقتداء بأخلاقهم وعاداتهم ، وخاصة أصحاب علوم
الحقائق ، والمتيقظين منهم ، المستعملين في جميع أمورهم ما
تقتضيه علومهم ، وتوحيه عقولهم .

فأما تمييز عادات النفس الناطقة ، واستعمال ما حسن منها
وطراح ما قبح ، فذلك إنما يمكن ويسهل أيضاً إذا راض نفسه الناطقة
فإن النفس الناطقة إذا ارتاضت بالعلوم الحقيقية ، وتيقظت ، وشرفت :
أنفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنس بها ، فيهون حيثبذ
على صاحبها تجنب ما يكره من عاداتها ، ويتغلب عليه استحسان

الأخلاق الجميلة ، والتخلق بها ، وقد تبين من جميع ما ذكرنا : إن طريق الارتياض وبالأخلاق المحمودة : المرضي منها ، والتصنع لاعتيادها ، واتباع المحمود المرضي منها ، واجتناب المذموم والمستقبح .

وتذليل قوة الشهوة الغضبية ، وضبطها وقهرها هو : إصلاح النفس الناطقة وتقويتها ، وتحليلتها بالفضائل والآداب والمحاسن ، فإن ذلك هو آلة السياسة ، ومركب الرياضة ، ومن لم يتمكن من إكتساب العلوم العقلية والإمعان فيها ، أو تعذر عليه ذلك ، فلي بذل جهده في تدقيق الفكر ، ومجاهدة النفس ، وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة ، وينظر أيها الجدى عليه ، وأيها أنفع له ، وأيها أحمد عاقبة وأبقى على الأيام ، فإنه إذا صدق نفسه ، وجد شهواته ولذاته إنما هي ملذة وقت استعمالها فقط ، فأما بعد مفارقتها ، فليست باقية عليه ، ولا نافعة له ويجد عارها وشينها باقياً على الدهر ، متداولاً بين الناس يعاب به ويزري عليه بقبحه .

وكذلك شدة الغضب ، والتسرع إلى الانتقام والسب ، والفحش ، فإنه إذا انجلت غمرته^(١) ، وسكنت سورته^(٢) ، وتأمل أمر ما فعله : وجد قبيحاً ، ولم يجده مجدياً ولا مفيداً .

وقد صار ما فعله عند الغضب نقيصة يوسم^(٣) بها ، ومعة يسب بها .

وربما ارتكب في الغضب جنایات ، يعاقب عليها ، ويؤدب من أجلها .

(١) الغمرة : بفتح الغين المعجمة : وسكون الميم : الشدة .

(٢) شدة الغضب .

(٣) الوسم : العلامة .

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضاً يجدها غير نافعة ولا مجدية .

وذلك إن : الحسد ، والحقد ، والخبث ، وأمثال هذه : لا ينتفع بها صاحبها ، وإن انتفع بالخبث والشر ، فشر منفعة .

ومع ذلك هو : ضار له ، فإن من تشرر : قصده الناس واستعدوا لأذيته وتصدوا للاضرار به ، وتوقوه ، واحترزوا منه ، وكرهوا نفعه ، وقصروا وجوه الخير عنه ، واجتهدوا في ذلك .

وما أسوأ حال من هذه صفته ، فمستعمل الشر والخبث سيء الحال ، يضره شره أكثر مما ينفعه .

فإذا حاسب الإنسان نفسه ، وأجال فكره ، وتمييزه : علم أن الضرر في مساوئ الأخلاق أكثر من النفع ، وأن الذي يعده منها نفعاً ليس هو بنفع على الحقيقة ، وهو يسير جداً غير باق ، ولا مستمر .

فإن هذا اليسير الذي يعده نفعاً لا يفي بالضرر الكثير ، والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضاً أن : الشر والخبث يجلبان عليه الشر ، ويوحشان منه الناس .

فإذا أدام ذلك ، وأكثر منه ، قوى في نفسه اتباع محاسن الأخلاق ، ومسهل عليه اطراح مساوئها ومقابحها ، وغلب عليه الخير والسداد ، وفرغ من العيب والعار .

فإذا فعل ذلك دائماً : لم يلبث أن يصلح أخلاقه ، ويحسن طريقته ، ويهذب شمائله ، ويلحق برتبة أهل الفضل ، ويتميز عن أهل الدنس والنقص .

وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه . أن يجعل غرضه من كل

فضيلة : غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلا بأعلى درجة ، فإنه إذا جعل ذلك غرضه ، كان حرياً أن يتوسط في الفضائل ، ويبلغ منها رتبة مرضية ؛ إن فاتته الدرجة العالية .

فأما إن قنع بالتوسط : لم يأمن أن يقصر عن بلوغه ، فيبقى في أدون المراتب ، ويفوته المطلوب ، فلا يطمع أبداً في التمام .

فهذا الذي ذكرنا ، هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ، ومنهج التدرج في محمود العادات .

فإذا أخذ الإنسان نفسه به ، وأكثر مراعاته ، وتعهده ، صار له أمر الفضائل ديدناً ، والمحاسن له خلقاً وطبعاً .

وقد بقي علينا أن نذكر :

في أوصاف الانسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي بها يصل إلى التمام

فنعول : الإنسان التام ، هو الذي لم تفتته فضيلة ، ولم تشته رذيلة ، وهذا الحد قلما ينتهي إليه إنسان .

وإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد ، كان بالملائكة أشبه منه بالناس .

فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص ، مستول عليه وعلى طبعه ضروب الشر ، فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة ، ويحيط بكل فضيلة ومنقبة .

إلا أن التمام - وإن كان عزيزاً بعيد التناول - فإنه ممكن ، وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان ، ونهاية ما هو منته له .

وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه كان قميناً^(١) بأن ينتهي إلى غايته التي هي منتهى له ، ويصل إلى بغيته التي تسموا نفسه إليها .

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام ، فهو : أن يكون متفقداً لجميع أخلاقه ، متيقظاً لجميع معاييه ، متحرزاً من دخول كل نقص

(١) يعني : جديراً .

عليه ، مستعملاً لكل فضيلة ، مجتهداً في بلوغ الغاية ، عاشقاً لصورة الكمال ، ملتزماً بمحاسن الأخلاق ، متيقظاً لمذموم العادات ، معتنباً بتهذيب نفسه ، غير مستكثر ما يقتنيه من الفضائل ، مستعظماً للسير من الرذائل ، مستصغراً للرتبة العليا ، مستحقراً للغاية القصوى ، يرى التمام دون محله ، والكمال أقل أوصافه .

فأما الطريقة التي توصله إلى التمام ، وتحفظ عليه الكمال فهي : أن يصرف عنايته إلى النظر في العلوم الحقيقية ، ويجعل غرضه الإحاطة بماهيات الأمور الموجودة ، وكشف عللها وأسبابها ، وتفقد غاياتها ، ولا يقف عند غاية من علمه إلا ورناً^(١) بطرفه إلى ما فوق تلك الغاية ، ويجعل شعاره - ليله ونهاره - قراءة كتب الأخلاق ، وتصفح كتب السير ، والسياسات ، وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله ، وأشار المتقدمون من الحكماء باعتياده ، وينشد أيضاً طرفاً من أدب البيان والبلاغة ، ويتحلى بشيء من الفصاحة ، والخطابة ، ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة ، ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة .

هذا إن كان رعية وسوقه .

فإن كان ملكاً ورئيساً ، فينبغي أن يجعل جلساءه ومناديه وغاشته^(٢) والمطيفين به : كل من كان معروفاً بالخير والسداد ، موصوفاً بالأدب والوقار ، مخصصاً بالعلم والحكمة ، محققاً بالفهم والفطنة ، ويقرب مجالس أهل العلم ، وينشطهم ، ويكثر مجالستهم والأنس بهم ، ويجعل تفرجه وتفكه مذاكرتهم في العلم وفنونه ، وسياسة الملك ورسومه ، وأخبار الحكماء وأخلاقهم ، وسير الملوك الأخيار وعاداتهم .

(١) رنا : أدام النظر .

(٢) بفتح الشين المعجمة والتاء الخفيفة : أي من يغشاه .

وينبغي للإنسان التام ، ولمن طلب طريقته التي بها يصل إلى التمام : أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً ، يقصد فيه الاعتدال ، ويجتنب السرف والإفراط ، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتمدة له : ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة ، ويأخذ نفسه بذلك ، ويحضر عنها الطبع ، ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم ، وينقبض عن الخلفاء^(١) ومخالطتهم ، ويشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح^(٢) ، وخصم مكافح ، يريد أبداً ضرورة وأذيته ، ويعتمد شينه وفضيحته ، فيناصب شهوته بالعداوة ، ويكاشفها بالمعاندة ، ويقمع أبداً سورتها ، ويكسر دائماً حدتها ، ويقهر سطوتها ، ويذل - على التدريج - عزتها ، ويسكن - على الترتيب - فورتها .

فإنه إذا فعل ذلك : كان خليقاً أن يملك نفسه ، وتنقاد له شهوته ، وتنطبع بالعفة ، وتألف حسن السيرة .

ومتى أرخى لشهوته عنانها ، وسمح لها في مرادها ، وأهمل سياستها ومراعاتها ، واستطالت وشمخت ، ولم تلبث أن توهن صاحبها ، وتقوده ، وتحمله على ما يسوؤه ، ويعره^(٣) فيصير بذلك بعيداً من التمام ، غير طامع في الكمال .

وينبغي لمن يطلب التمام ، أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه ما دامت اللذة عنده مستحسنة ، والشهوة مستحبة ، وهذه الحال صعبة جداً ، متعسرة على طالبها ، بعيدة المآخذ ، وهي على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد ، لأن الملوك والرؤساء أقدر على اللذات ،

(١) يقصد خلفاء السوء ، أو الخلفاء والملوك الذين كانوا في عهده ، فإن أيديهم كانت أقرب إلى السيف منها إلى النعمة وقد أصابه منهم أذى كثير والله تعالى أعلم .

(٢) مكاشح : لاصق بكشحه ، والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع . وهو تعبير عن شدة القرب .

(٣) أي يلصق به الفضيحة .

وأشد تمكناً ، والشهوات واللذات لديهم معروضة ، ولهم سجية وعادة ، فمفارقتها عليهم متعذرة ، وإعراضهم عنها كالشيء الممتنع ، خاصة لمن قد نشأ على الانهماك فيها ، والتوفر عليها .

إلا أن الملوك - وإن كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتياداً لها فهم أعظم همماً ، وأعز نفوساً ، والمحصل منهم إذا سمت نفسه إلى التمام الإنساني ، واشتأقت إلى الرئاسة الحقيقية ، علم أن الملك أحق أن يكون أتم أهل زمانه ، وأفضل أعوانه ورعيته ، فيهون عليه مفارقة الشهوات ، وهجر اللذات الدنية .

وينبغي لمن رغب في سياسة أخلاقه ، وسلك طريق الاعتدال في الشهوات ، أن يجعل (لها) قانوناً يقتصر عليه في المأكل والمشرب ، مقروناً بالكرم ، وهو أن لا يستبد بالمأكل والمشرب وحده ، بل يقصد أن يشرك في ما له من ذلك إخوانه وأوداءه ، إن كان رعية وسوقه .

وإن كان ملكاً رئيساً فيجمع عليه حاشيته وندماءه ، ويعم به أصحابه وأعوانه ، ويتفقد بفضلاته^(١) أهل الفقر والمسكنة ، وخاصة من سبقت له معرفة به ، أو تقدمت له خدمة ، فيصرف إلى حاجاتهم من عنايته ، فإن اعتداد هؤلاء بما يصل إليهم من بره ، أكثر من اعتداد حاشيته وأصحابه ، وليظهر لمن يجتمع على مائدته ، وعلى طعامه وشرابه ، من إخوانه وأصدقائه ، ورعيته وندمائه - وإن كان ملكاً - أن جمعه لهم للأنس بهم ، والسرور بمعاشرتهم ، لا ليكرمهم بطعامه وشرابه ، ولا أن لذلك قدراً يعتد به .

ويحترز - كل الاحتراز - من أن يبدو منه امتنان بالطعام والشراب ، أو تبجح به ، فإن ذلك يرري بفاعله ، ويغض منه ، ويوحش من يغشاه ، ويقطعهم عنه .

(١) ما يفضل منه .

وقد يستحسن من الإنسان أيضاً - إذا كان مقلاً - أن يواسي بطعامه إخوانه ، وإن كان محتاجاً إليه ، ويستحسن منه أيضاً أن يواسي به الفقراء والضعفاء ، وقد يستحسن منه أيضاً أكثر من ذلك ، بأن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره ، وإن كان شديد الإضطرار إليه ، وكان لا يقدر على غيره .

وينبغي أيضاً لمن طلب السياسة التامة : أن يستهين بالمال ويحتقره وينظر إليه بالعين التي يستحقها .

فإن المال : إنما يراد لغيره ، وليس هو مطلوباً لذاته ، فإنه في نفسه غير نافع ، وإنما الانتفاع بالأغراض التي تنال به .

فالمال آلة تنال بها الأغراض ، فلا يجب أن يعتقد أن اقتناءه وإدخاره مفيد ، فإذا أدخر وحرص عليه : لم ينل صاحبه شيئاً من الأغراض التي هو بالحقيقة محتاج إليها .

فالمال هو مطلوب لغيره ، فينبغي للسديد الرأي ، العالي الهمة ، أن يزنه بوزنه ، فيكسبه من وجهه ، ويفرقه في وجهه ، ويكون مع ذلك ، غير متوان في اكتسابه ، ولا مقدم في طلبه ، لأن عدم المال بضطره إلى التواضع لمن هو دونه ، إذا وجد عنده حاجته ، ووجود المال يغنيه عن : من هو فوقه ، وإن دنت منزلته .

ويكون - أيضاً - غير مدخره ولا متمسك به ، بل يصرفه في حاجاته ، وينفقه في مهماته ، ويقصد الاعتدال في تفريقه ، ويحذر من السرف والتبذير في تخريبه ، ولا يمنع حقاً يجب عليه ، ولا يصرفه في شيء لا يحب ولا يشكر عليه .

وإذا فرغ من حاجته ، واستكفى من نفقاته ، وسد خلله^(١) عاد إلى النظر في أمره ، فإن كان بقي من ماله بقية فاضلة عن مهم

(١) الخلل : بضم الخاء ، جمع خلة بفتح الخاء ، وهي : الحاجة .

أغراضه : أخرج منها قسطاً ، فجعله عنده يستظهر به لشدة ، و يعده
لنائبة ، ثم عمد إلى الباقي وفرقه في ذوي الحاجة ، من أهله ،
وأقاربه ، وإخوانه ، وأهل مودته ، وجعل فيه قسطاً للضعفاء
والمساكين ، وأهل الفاقة المستورين ، وجعل اهتمامه بإفضاله وبره :
أكثر من اهتمامه بضروراته ، فإن الضرورات تقوده كرهاً إليها ، وأكثر
النوافل متى لم يهم بها ويشعر نفسه ألزامها : لم يسهل عليه فعلها ،
لأن ضعف النفس وسوء الظن يصرفه عنها ، وإن لم يكن له جاذب
من نفسه ، وداع قوى من همته ، لم يقدم عليها ، وغلب عليه
التواني ، فإذا توانى عن البر والفضل : كان شحيحاً دنياً ، وليس بتام .

بل ليس بالحقيقة إنساناً من لم يكن له بر يعرف ، ولم تنتشر له
أفعال توصف .

هذا إن كان من أوساط الناس .

فأما الملوك والرؤساء ، فإنهم أحق بهذه السياسة ، ويجب أن
يكونوا بذلك أشد عناية ، فيجبروا الأموال من حقها وواجبها ، ويصرفوا
منها في نفقاتهم ومؤناتهم ، وأرزاق جندهم ، وأصحابهم تدر الكفاية ،
من غير سرف ولا تقتير ، ويعدوا منها شطراً لخوف عاقبة ، ويصرفوا
الباقي في طريق الكرم والجود ، ووجوه الخير والبر ، فيعطوا أهل
العلم على طبقاتهم ، ويجعلوا لهم رواتب من خواص أموالهم ،
ويدفعوا لمن هو مثابر على العلم والأدب ، ويبرو الضعفاء والمساكين ،
ويتفقدوا الغرباء ، ويهتموا بالزهاد وأهل النسك ، ويخصوهم بقسط من
إفضالهم وإنعامهم ، ويعتنوا بالصغير والكبير ، وينفقوا في مصالحهم
شطراً من أموالهم ، فإن الملوك أولى بالكرم من الرعية ، وأحق بالجود
من العامة .

وقد يستحسن أيضاً من الملقين^(١) والمقتربين : المواساة بالمال

(١) بفتح الميم وكسر اللام والقاف .

والإيثار به ، وإن كانوا محتاجين إليه ، وكلما كانت حاجتهم أشد ، كان ذلك الفعل حسناً ، وهذه الحال مستحسنة ، إذا رأى الرجل أخاً من إخوانه ، أو صديقاً يختص به ، وقد دعت الحاجة إلى ما لا يقدر عليه لإصلاح شيء من شأنه ، أو لدفع محنة نزلت به ، وكان هو قادراً على ذلك القدر من المال ، فيبتدي بإسعافه : عفواً من غير مسألة .

وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذي لا يعرفه ، ولم تسبق له حرمة ولا مودة ، كان جميلاً مستحسناً .

وينبغي لمحِب الكمال : أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع : يفعل ما يفعله من غير علم ، ولا روية .

فإذا جرى بينه وبين غيره محاوراة : أدت إلى أن يغضب خصمه ويتسفه عليه : اعتقد فيه أنه في تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع ، فيمسك عن مقابلاته ، ويحجم عن الاقتصاص منه ، ألا يعلم أن الكلب لو نبج عليه ، لم يكن يستحسن مقابلاته على نبجه ؟ وكذلك البهيمة لو رمحته ، لم يستحسن عقوبتها ، ؟ لأنها غير عالمة بما تصنعه ، إلا أن يكون جاهلاً ، فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته ، ويوجعها ضرباً إذا آذنه ، وربما عثر السفية فشتت موضع عثرته ، ورفسه برجله .

فأما الحلیم الوقور ، فلا يستحسن شيئاً من ذلك ، وإذا استشعر في خصمه أنه بمنزلة البهائم : صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية ، وزمها^(١) وأن أذاه مؤذ بغير سفه . فيؤدي ذلك الأذى إلى حال يغضبه ، أنف أيضاً من الغضب ، مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء ، فيعدل حينئذ إلى مقابلة مؤذية بما يقتضيه الرأي ، من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه .

(١) إلزم : بالزاي ، هو شد الزمام (المقود) مأخوذ من زم البعير : إذا خطمه .

وينبغي لمحب الكمال أيضاً أن يعود نفسه محبة الناس اجمع ،
والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والرأفة والرحمة بهم ، فإن الناس
قبيل واحد ، متناسبون ، تجمعهم الإنسانية ، وحلية القوة الإلهية هي
في جميعهم ، وفي كل واحد منهم ، وهي النفس العاقلة ، وبهذه
النفس صار الإنسان إنساناً ، وهي أشرف جزئي الإنسان : الذين هما :
النفس والجسد ، والإنسان بالحقيقة هو^(١) : النفس العاقلة ، وهي
جوهر واحد في جميع الناس ، وكلهم بالحقيقة شيء واحد ،
والأشخاص كثيرون .

وإذا كانت نفوسهم واحدة ، والمودة إنما تكون بالنفس ، فواجب
أن يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك في الناس طبيعة ، لو لم
تقدم النفس الغضبية ، فإن هذه النفس تحب لصاحبها الرأس ،
فتقود صاحبها إلى الكبر والإعجاب ، والتسلط على المتضعف ،
واستحقار الصغير ، وحسد الغني وذو الفضل ، فتنشأ من أهل هذه
الأسباب : العداوات ، وتأكد البغضاء بينهم ، فإذا ضبط الإنسان نفسه
الغضبية ، وإنقاد لنفسه العاقلة صار الناس كلهم له أحبباً ، وإخواناً .

وإذا أعمل الإنسان فكره : رأى ذلك واجباً ، لأن الناس إما أن
يكونوا فضلاء ، أو نقصاء .

فالفضلاء تجب عليه محبتهم لموضع فضلهم ، والنقصاء تجب
عليه رحمتهم لموضع نقصهم .

فيحق لمحب الكمال : أن يكون محباً لجميع الناس ، متحنناً
عليهم رؤوفاً بهم ، وخاصة الملك والرئيس ، فإن الملك ليس يكون
ملكاً ما لم يكن محباً لرعيته ، رؤوفاً بهم ، وذلك أن الملك ورعيته
بمنزلة رب الدار ، وأهل داره ، وما أقبح رب الدار أن يبغض أهل
داره ، ولا يتحنن عليهم ويحب مصالحهم .

(١) في الأصل : «هي» .

وينبغي لمحب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس ، وإنفاق ما يفضل من ماله فيما يبقى له الذكر الجميل بعد موته ، ويتحرز من فعل الشر ، فإنه إذا حاسب نفسه : علم أن من فعل الشر فإنه يفعل له خيراً لا يعتد^(١) أنه يصل إليه ، وربما كان غالطاً .

وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة كان واجباً عليه أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق غير طريق الشر ، إذا كان هو الغرض المطلوب : لا فعل الشر .

فأما إن كان شره يلحقه أسفاً وغيظاً ، فليعلم أنه إذا سكن غيظه ، وجد ذلك المقصود بالشر : غير مستحق لذلك الفعل ، ففعل الشر قبيح ، وخاصة بمن قد جمع الفضائل .

إلا أن يكون ذلك الشر تأديباً على جرم ، واقتصاصاً من جان ، فإن هذه الحال مستحبة محمودة ، بل لا يعد شراً ، لأن ذلك الشر إنما يصل إلى الجاني فقط ، ويكون منه نفع عام لجميع الناس ، بأن يرتدع أمثاله من الجناة ، وتكون المنفعة فيه أكثر ، من أجل ذلك لا يعد شراً .

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير ، وألفه ، وتجنب الشر ، واستوحش منه : لانف من الأخلاق المكروهة ، التي تعد شراً كالحسد ، والحقد ، والخبث ، والخديعة ، والنميمة والعيبة . والواقعية ، وأمثال هذه العادات .

وإذا فكر العاقل المحصل فيها : علم أنها غير مجدية عليه نفعاً ، وهي مع ذلك تشينه وتقبح صورته .

وإذا كان محباً للتمام ، مستشرفاً للكمال ، كان واجباً عليه تجنب هذه الأخلاق .

(١) في الأصل المطبوع «ليعتد» .

وينبغي لمحب الكمال : أن يعتقد أنه ليس شيء من العيوب والقبايح خافياً عن الناس ، وإن اجتهد صاحبها في سترها ، فلا يطمع نفسه في ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس ، حتى لا يقف عليه أحد^(١) .

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس : وتعيرهم بها ، وذلك في الناس غريزة ، والسبب فيه أن الإنسان ما لم يبلغ التمام ، فليس يخلو من تقصير يعاب به ، ويسوؤه أن يكون غيره أفضل منه ، فهو يسر أن يكون الناس كلهم نقصاء ، ليساووه في النقص ، ويخلوا دونه ، فهو أبداً يتتبع معائب الناس ، ويعيرهم بها ، يرى الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب ، ويشعر نفسه أيضاً ذلك ، لتطيب بما فيها من العيوب .

فليس شيء من العيوب بخاف عن الناس ، وإن اعتمد ستره .

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء : أن عيوبهم مستورة عن الناس ، غير بادية ، وذلك لموضع هيبتهم ، وعظم سطوتهم ، يستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على إظهار أسرارهم إن وقفوا على شيء منها ، وهذا نهاية الغلط ، لأن خواص الملك وحاشيته ، كما أنهم عنده ثقة أمناء ، كذلك لكل واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه بأسراره ، والذي لا يستر أسرار نفسه ، فمحال أن يستر أسرار غيره^(٢) .

(١) مصداق قول رسول الله (ص) : «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لأنخرج عمله للناس كائناً من كان» رواه الإمام أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم .

(٢) إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

وهذا الحال : طريقة إلى إنتشار معائب الملوك ، الذين يظنون أنها مستورة .

والعلة في ظنهم أنها مستورة هو : أنهم لا يسمعون أحداً يذكرها ، ولا أحداً يتنصح إليهم بها ، فيظنون أنها خفية .

فإذا أحب الإنسان أن يعلم أن عيوبه غير خافية ، فليعد إلى نفسه ، ولينظر : هل يعرف لأحد عيباً كان يستره ويخفيه ، فإنه يجد للناس عنده عيوباً كثيرة قد اجتهدوا في سترها ، وحرصوا على صونها .

ومنهم من يظن أنها خفية .

ومنهم من يعلم : أنها قد انتشرت بعد الستر .

فإذا علم أنه عارف بأسرار كثير من الناس كانت مستورة ، فمن الواجب أن يعتقد أن عيبه غير خاف ، ولا منكتم ، وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف من عيوبهم .

فينبغي لمحِب الكمال : أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة ، وإن اجتهد في إخفائها ، وليس بتمام من عرف له عيب ، ولا طريق إلى التمام إلاً باجتنب العيوب بالكلية ، والتمسك بالفضائل في سائر الأمور .

وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية ، ونهاية الفضيلة البشرية ، وواجب على كل إنسان : الاجتهاد في بلوغها ، واستفراغ الوسع في الوصول إليها ، لأن التمام مطلوب لذاته ، والنقص مكروه لعينه .

وأحق الناس بطلب هذه الرتبة ، وأولاهم بالتحميل لبلوغ هذه المنزلة : الملوك والرؤساء ، وأشراف الناس ، وأعظمهم قدراً .

وما أقبح بالشريف العظيم أن يكون ناقصاً .

فالملوك إذا ينبغي أن يكون أشد الناس حرصاً على بلوغ

الكمال ، لأن الكامل من الناس ، الجامع للفضائل : مترتب بالطبع على الناقص من الناس .

فالإنسان التام : رئيس بالطبع .

وإذا كان الملك تاماً جامعاً لمحاسن الأخلاق ، محيطاً بجميع المناقب ، كان ملكاً بالطبع .

وإذا كان ناقصاً كان ملكاً بالقهر .

وما أولى بالملك : أن يرغب في الرئاسة الحقيقية التي لا تكون بالقهر والشرف الذاتي ، لا ما هو بالوضع .

فالواجب : أن يصرف الملك همه إلى إكتساب الفضائل ، واقتناء المحاسن ، ويطلب الغاية في المكارم ، ويستصغر الكبير منها ، حتى يحوز جميعها ، ولا يرضى بالنهاية ، حتى يزيد عليها .

فإنه إن رضي برتبة فوقها رتبة لم يصل أبداً إلى التمام .

وإن أبعد الناس من التمام : من رضي لنفسه بالنقصان .

فإذا طلب الملك الكمال ، فأول ما يجب أن يعتاد : عظم الهمة ، فإن عظم الهمة يصغر في عينه كل رذيلة ، ويحسن له كل فضيلة .

وإذا عظمت همة الملك سلم من الأعجاب بملكه ، ورأى نفسه وهمة : أعظم قدراً من أن يستكبر ذلك الملك .

وإذا احتقر الملك ملكه الذي به عزه وعظمته ، طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة ، وليس يعظم النفس إلا الفضائل .

ثم : ينبغي له أن يكره الملق^(١) . ويبغض المتملقين وينهاهم عن تلقيه به .

(١) بفتح الميم واللام : النفاق ، وإظهار غير ما يحتمر

وملاك أمره : أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها ، وهذا في الملوك صعب ، لأن الإنسان بالطبع يخفي عليه كثير من عيوبه .

فالذي يخفي على الملوك أكثر لإعجابهم بمحاسنهم ، وعظم مرتبتهم .

وأيضاً فإن الرعية والسوقة ، يكتون بعيوبهم ، ويعيرون بها ، فهم يعرفونها .

والملوك : لا يجسر أحد على تبكيتهم ، فلا يقدم أحد على تبكيتهم على عيوبهم ، لأن الناس أجمع : يقصدون التقرب إلى الملوك يملقهم ، فلا يقولون لهم إلا ما يحبون ، لينالوا الحظوة عندهم .

فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم .

وينبغي للملك إذا أحب أن يتنزه من العيوب ، ويتطهر من دنسها : أن يتقدم إلى خواصه وثقاته ، ومن كان يسكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته ، فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه ، ونقائصه ، ويطلعوه عليها ، ويعلموه بها .

وينبغي له أيضاً : أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول ، ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه .

بل المستحسن منه : أن يجيز^(١) الذي يوافقه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح له على نقصه ، ويتحمل لومته على فعله ، فإنه إذا لزم هذه الطريقة ، وعرف بها : أسرع أصحابه وخواصه إلى تنبيهه على عيوبه ، وإذا نبه على ما فيه من النقص : أنف منه ، واستشعر أولاً أن

(١) يجيز : يعني يعطيه جائزة .

سيعيرونه به ، ويصغرونه من أجله ، ويلزمه -حيث أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب ، ويقهرها على التخلص من دنسها ، فإذا فعل ذلك ، وتوفر على إقتناء الفضائل ، وألزم نفسه التخلق بالمحاسن ، ولم يرض من منقبة^(١) إلا بغايتها^(٢) ، ولم يقف واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً ويبقى له الذكر الجميل أجلاً ، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام ، ويرتقي إلى النهاية من الكمال ، فيحوز السعادة والإنسانية والرئاسة الحقيقية ، ويبقى له حسن الشاء مؤبداً^(٣) وجميل الذكر مخلداً .



فقد أتينا على صفة الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق والطريق التي تؤديه إلى هذه الرتبة ، وتحفظ عليه هذه المنزلة .

وقد منا : ما يجب تقديمه من «سياسة الأخلاق وتهذيب النفوس» : فما أولى من نظر في هذا القول وتصفحه ، وفهم مضمونه وتدبره : أن يأخذ نفسه باستعمال ما بين فصوله ، ويسوس أخلاقه مما يتطرق إلى الذي قن^(٤) في تضاعيفه ، ويجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه ، ويستغرق غاية الوسع في طلب تمامه ، فما أقبح النقص بالقادر على التمام ، والعجز من المستعد لنيل الكمال .

وهذا حين نختم القول بـ «تهذيب الأخلاق» .

والحمد لله .

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه .



(١) أي فضيلة من الفضائل .

(٢) الغاية : نهاية المقصود .

(٣) أي مدة حياته وبعد مماته .

(٤) قن : أي وضع قوانين يعمل بها الناس .

